

القصة في الأدب العصري

للمستاذ علي النجدي ناصف

مفتش المعارف بالاسكندرية

ليست القصة على إطلاق معناها بدعة في الأدب الحديث ، ولكنها فن قديم عالج القدماء ، وأصاب حظاً من عنايتهم وجهودهم ، ثم انحدر إلينا فيما انحدر من تراثهم الأدبي الوافاً شتى ، تتفاوت قيمة وموضوعاً . وعلى كل منها مسحة من البيئة التي نبت فيها ، وسمه من العصر الذي أظله ، فتوزعت الطوائف ، ولأق كل صنف حظوة الطائفة التي آثرته ووجدت فيه متاعها الفني .

فالأمثال الفرضية التي وضعتها العرب على السنة الحيوان . والاساطير التي يرويها حفاظ الأدب العربي ورواته ، وكيلة ودمنة ، ورسالة الغفران ، والمقامات ، وألف ليلة وليلة بما أضيف إليه ، وأدخل فيه ، وقصة سيف ابن ذي يزن - كل أولئك أمثلة للقصة العربية في عصور مختلفة .

وأعتقد أن لا سبيل إلى تعيين الوقت الذي بدأ فيه الإنسان يصطنع القصة بعد أن استقرت حياته ؛ لأن وجودها على ما يظهر لا يرتبط بطور خاص من أطواره ، ولا يستوجب حالة معينة من حالاته . وإنما هي لازمة من لوازمه ، يضطر إليها إضطراراً في بعض مراقب الحالات مهما تكن درجتها ، وأياً كانت الصبغة التي تصطبغ بها . فالإنسان إذا تحدث بعينه طبعاً إقبال السامعين عليه ، وارتياحهم لحديثه ، وإعجابهم به . فهو لذلك يحرص أن يجعل حديثه شائقاً جذاباً ، فإذا لم تسعده مواهبه الشخصية ، أو لم يكن له من مكاتبة الاجتماعية ، أو من الموضوع الذي يتحدث عنه - عوض يكفل له التسلط على السامع ، والاستئثار بالانتباه . فربما لا يرى بأساً من التزيد في الحديث : يصل به الحواشي والذبول ، ويفخم وقائعه بالتهويل والتخيل ، وذلك هيكل القصة أو نمط منها بسيط

وللقصة اليوم شأن جليل ، ومنزلة لم تبلغها من قبل . ولا تزال العناية بها تزداد يوماً فيوماً ، فكثير من الكتاب والمتأدين يعالجونها وضعاً ونقداً ، أو دراسة وتعقيلاً ، والجمهور بها مولع ، وعليها حريص ، يقرأها مكتوبة ، ويشهدها ممثلة في دور التمثيل أو الخيالة ، وتعنى بها وزارة المعارف وبعض أصحاب الأموال والأعمال : يقيمون لها المسابقات أحياناً ، ويرصدون الجوائز لأصحاب القصص البارعة للتمثيل أو النشر .

على أن نتاج أدبائنا منها لا يزال قليلاً ، بل قليلاً جداً بالإضافة إلى رغبة الجمهور وإقباله ، ولذلك ترى القصص الغربية المعربة تتدفق تباعاً من المطابع العربية . ولعل أهم ما يمتاز به غلبة السرعة عليها في الترجمة والطبع ، وفي الهيئة والشكل . وهي مع ذلك نافقة السوق لا يكاد شيء منها يبور . والقصص الغرامية والشرطية أكثرها رواجاً ، وأشيعها تداولاً ، وأحبها موضوعاً إلى نفوس القارئتين .

وليس عجباً أن يكون للقصة هذا الشأن العظيم . فالقصة الصالحة من أمتع معارض الحكمة ، وأنجع الوسائل لبث موعظة ، وتغيير منكر ، وبسط رأى ، واستصلاح أمر ، ونشر دعوة . وهي بعد محببة إلى النفوس ، قريبة من أفهام الشدة والدهم ؛ لقلة مثوتها ، وغلبة الغرابة والمفاجأة على حوادثها ، وكثرة المشوقات فيها .

وبحسبك — والله المثل الأعلى — أن كتاب الله المجيد يقص الكثير من أنباء الرسل ، وأخبار الأمم الماضية ، ويكرر عرض هذه وتلك في تفصيل وإسهاب تارة ، وإيجاز قليل أو كثير تارة أخرى ، لتثبت فؤاد النبي ، وموعظة وذكري المؤمنين . وثمة أيضاً تشابه التمثيل المنبثقة فيه ، لا تكاد تبعد من القصة ولا تجافها ، ولها من الروعة والطلاوة وبلاغة التأثير ما لها .

ثم إن القصة ميدان رحيب ، يجد فيه الكاتب الملبق مضامير شتى لخياله السري ، وفكره الثاقب ، ونظرة البعيد ، فيتهيأ له فيها ما لا يكاد يتهيأ في سواها ، من حسن الاقتنان ، وروعة التصوير ، والتلطف في الإقناع ؛ لأنه في القصة يخلق من خياله عالماً خاصاً ، يستجمع فيه من عالم الحقيقة كل ما يقتضيه حبك

القصة ، وتساق وقائعها : من الرضا والسخط ، والترتيب والشعث ، والسعادة والشقاء ، والليل والنهار ، والدمامة والحسن ، والخير والشر ، وكثير غيرها أو مثلها بما تضطرب به الحياة في عالم الحقيقة الواقعة . وهو حين يزجى الحوادث ، ويصف الملابس وينطق الأشخاص — ينفث هنا وهناك رسالة القصة ؛ فتتسلل ديباً إلى مواطن الاقناع ، حتى لقد يقع في النفس أن هذا الذي يتمثل لها من وقائع القصة ، ويلقى إليها على السنة أشخاصها — ليس إلا قطعة من الحياة في دأب معتاد ، وحال مألوقة ؛ فتأثر به كتأثرها بالبيئة ، وتطمئن إلى وحيه كما تطمئن إلى العقيدة المستقرة ، أو الرأي الخاص : تهدي إليه النظرة الشخصية ، أو التجربة الذاتية ؛ فتعصب له ، ولا يسهل أن تتحول عنه .

فهل ترى جمهرة أدبائنا المولعين بالقصة ، يتناولونها من أكرم نواحيها ، أو يقصدون بها إلى أنبل غاياتها وأجلها للخير ؟

دع القصص المدرسية ، وطائفة قليلة من القصص التحليلية الأخرى ، التي وفق بعض الأدباء في وضعها ، وتحروا بها وجه الحكمة والفضيلة . ثم اقرأ أية قصة في كتاب أو صحيفة ، ولا تتكلف التقصي والاستقراء في سبيل الدرس والتهدي إلى صواب الرأي ، فقليل هذه القصص يغنى عن كثيرها ، بل إن بعضها ليدل على جهلها . فإذا ترى ؟ ترى الموضوع ساقطاً مبتذلاً ، والعبارة في أكثر حالاتها سخيفة مستهجنة لا تترفع أحياناً عن العامة الخالصة ، ترى المرأة في كل قصة صاحبة الحول والطول ، أو هي — كما يقولون — قطب الرجي : تدور الوقائع كلها من حولها ، فعلا وتديراً ، أو وحيًا وتأثيراً ، وتجد النهاية التي تنتهي إليها القصة أبداً هي ضعف إرادة المرأة ، وعجزها عن مغالبة عواطفها الجنسية ، حتى ما تكاد تقرأ على مراوغة أو إغراء ، ولا تتأثم في الخيانة والاستسلام .

صحيح أن المرأة تسهم في أمور الحياة بنصيب كبير ، وأن القصة في وضعها الصحيح قطعة من الحياة ، فمثلاً تصوي عاطفة الأبوة تصويراً صادقاً يجلبها على حقيقتها في الفطرة المستقيمة — يلاقى من ارتياح القارئ وحسن إقباله كل

ما تلاقيه صورته المرسومة ، تحكيه في وضع من الأوضاع ، أو على حالة من الحالات . وكلما كانت هذه وتلك أشبه بالحقيقة ، وأجمع لذائقها ، وأشد تبييناً لسرايرها — كانت أرفع قيمة ، وأوفر حظاً من الفن . فلا تثريب إذاً على الكاتب أن يتناول المرأة في القصة تصويراً وتحليلاً ، بل من محاسن التوفيق أن يفعل أحياناً ، ولكن الذي لا يستساغ منه ولا يغفر له أن يضع المرأة في غير وضعها ، ويتكلف لها من الأمر ما ليس لها ، وأن يقصر همه في درسها وتحليل شخصيتها على ناحية واحدة ، يقف عندها ، ولا يكاد يريم .

تلك هي ناحية العبث والمجون كما تكون في المرأة اللاهية المستهترّة ، كأن هذا هو شأن المرأة في فطرتها ، أو كما يجب أن تكون .

إن من الاسراف في التغرير والملاق أن نلقى في روع المرأة أنها صاحبة الحل والعقد في أمور الحياة : لا يبرم أمر ولا ينقض ، إلا ولها به صلة من قريب أو بعيد ؛ فإن للمرأة مهمة تصلح لها ، وللرجل أخرى تصلح له ، ومن تعدّى الحدود القائمة . وقلب الأوضاع الصحيحة ، أن تنافس المرأة الرجل في مهمته . وإذا كانت المرأة في بعض الأمم الغربية قد سبقت الرجل في مضماره ، ونازعته كثيراً من حقوقه وواجباته ، فامتد سلطانها ، وزاد نفوذها — فهل بلغت المرأة الشرقية ، وبخاصة المسلمة هذا الشأ ؟ وهل من الصدق في أدب القصة أن ندعي لها هذا الشأن ، وننسب إليها ما ليس فيها ؟

حقاً أن براعة القصة ليست دائماً في تمثيل الحياة الواقعة تمثيلاً مطابقاً ، ولكنها كذلك في تصوير المثل العليا ، وتخيل الآمال الشاردة تخيلاً يدني بعيدها ، ويحقق أحلامها في ذهن الكاتب ، حتى يستطيع أن يتحدث عنها بالغيب ، كما يتحدث عن الحقائق الجارية في محيط معين ، أو أفق آخر من آفاق الوجود فتعلق بها الإرادة وتتناول إليها النفس . وربما استجابت لدواعيها ، وأعدت العدة لطلبها .

فهل ترى المستهترين من كتاب القصة المصرية يريدون بالحديث عن امرأة لا وجود لها في البيئة الشرقية الكريمة ، أن يسبقوا الحوادث ، ويدفعوا المرأة

الغافلة المؤمنة دفعا إلى المصير الوخيم ، الذي يخيل لهم فهمهم الخاطئ أنها صائرة إليه ؟ إن كان هذا ما يريدون ، فيألفها زلة مالها من مقيل أو أي زلة أهول هولا ، وأسوأ عاقبة من إشاعة الفاحشة ، وتحريض الناس أن يحبوا حياتين متناقضتين ؟

وإذا كان للقصة كل ما أسلفنا من قوة التأثير ورواج السوق فكيف يمكن إلا غضاء عن القصص الخليع ، وهو في رأي ليس أقل عصفا بالأخلاق وجناية على الآداب من التحريض على الفسق ، وعرض الصور المثيرة للغريزة الجنسية ؟ وكيف يكون واجبا أن تصان أبصار الجمهور عن رؤية المناظر المنافية للعفاف والتصون ، ثم لا يكون واجبا كذلك أن تصان أبصاره عن قراءة الأدب الخليع وأذهانه عن أمثال حوادث المجان ، وتعرف حيل التفرير بالمرأة ، ووسائل النجاة من تبعة سقوطها والجناية عليها ؟

ربما أفهم أن يطيب لبعض الغربيين في قصصهم هذا المنحى الخليع ، يتجهون إليه ، ويؤثرونه على سواه ، ولكنني لا أستطيع أن أفهم كيف يطيب لجمهرة القصصيين من أدبائنا أن يأخذوا هذا الأخذ المعوج ، الذي يناقض آداب المجتمع الشرقي ، ولا يتفق في شيء مع الدين الحنيف .

على أنه إذا لم يكن لهم بد من ذكر المرأة في قصصهم ، ففي نواحيها البريئة الخيرة مندوحة واسعة : هناك الصبر ، والرحمة ، والايثار ، والبر ، والإغراء بالطموح ، وكثير غيرها .

إن أكثر ما أخذناه عن الغربيين متعلقا بالمرأة — غث مرذول ، بل فاسد وويل ، يجب نبذه والتخلص من آثامه وأوضاره ، أما التشجيع عليه ، والدعوة إلى الاستزادة منه ، فضلال وحق . وليس فيه مع ذلك نخر لصاحبه ، ولا هوي يبيع له ادعاء القدرة على القيادة والتوجيه ، إذا صح أن في الخنى موضع نخر ، أو مجالا لاتتحال نوع من القدرة ، فإن النفس الضعيفة بطبعها سهلة الانخداع . يجتذبها الجديد بجذته ، فتزعم إليه ، وقد تهيم به من غير تحريض ، وإنما الفضل كل الفضل ، والقدرة ليس أجل منها ، أن يستطيع امرؤ بيانه أن يبت في النفس

الضعيفة قوة ، وينفخ فيها من روحه مناعة تقوى بها على مغالبة نوازي الائم ، والسلامة من الموبقات ، ذلك مقام صعب لا يرقى إليه إلا ذو حظ عظيم من العبقرية والنبوغ .

ثم ما هذه اللغة التي يكتبون بها قصصهم ؟ وكيف يسيغون أن تكون هكذا واهنة مشككة الألوان : تتخاذل ركة وسخفا ، وتتجاوزها العامية والعجمة ، فتذهب بينهما سقطا زريا ، أفترى هذا العجز عن اصطناع اللغة الفصيحة التي تليق وحدها بالأدب القيم الرشيق ؟ أم هو التجديد الذي يتمشدقون باسمه ، ولا نرى له أثارة في أعمالهم إلا هذه الثورة الجائحة حتى على الأوضاع الصحيحة ، والمحارم المصونة ؟ .

ليكن السبب ما يكون ، فالذي لا ريب فيه على أي حال أن هذا الضرب من القصص ليس من الأدب المختل في شيء ، فقد فاته شرف اللفظ ، وسلامة العبارة ، وحرم نبل الموضوع وسمو الغاية .

ألا ليتق الله هؤلاء الدعاة الإباحيون ، أو ليرفقوا بأمتهم ولغتهم ، فقد غلب الوهن على أخلاق الشباب ، وشاع فيهم النزوع إلى التحلل من كل قيد ، وتكاد العجمة تهم بالفصيحة ، وتنازعها شرف المنزلة وجلالة الشأن ، فإلا يكونوا عوناً للفضيلة والبيان الصحيح ، فلا أقل من أن يكفوا عن منازلتها باسم الأدب عامدين أو غير عامدين .

على النجدي ناصف